كتاب

الفن الإسلامى

تأليف
أرنست كونل

الفن الإسلامى

ألف الكتاب العالم الفنان ،أرنست كونل، الذى درس القانون والآثار وتاريخ الفن والفلسفة فى جامعات باريس وفينا وميونيخ وفلورنسا وهايلدلبرج وكان مديرا لمتحف الفن الإسلامى ببرلين ثم أستاذا لتاريخ الفنون الإسلامية وأستاذا زائرا بمعهد الآثار الإسلامية بالقاهرة عدة مرات آخرها سنة ١٩٣٦ .

وترجم الكتاب الدكتور أحمد موسى.

والكتاب يتناول الفن الإسلامى فى عصوره المختلفة ومواطنه المتعددة وقد وقف المؤلف طويلا عند ريادات مصر والقاهرة . ويقول عن باب الفتوح، إنه يبدى فوق المدخل (أول مثال للقبة المسطحة المبنية بالحجر المنحوت فوق وصلات دائرية) .

ووقف مبهورا عند الواجهة الفخمة لجامع الأقمر (فهى غنية بحنايا تنتهى بتضليعات مخوصة على شكل الصدفة... وقد صار هذا الأسلوب فيما بعد جوهريا فى زخرفة المآذن على الأخص.. فالوردة البديعة المحفورة المفرغة فى جامع الأقمر ترينا مدى التفوق الفنى فى مدينة الزهراء حيث معالجة المسطحات العليا وصنع العرانيس فى بعض النصب المحفوظة) .

ويقف الأستاذ ارنست كونل عند العصر الذهبى الفاطمى فى أوائل القرن الثانى عشر... وفيه رسوم إنسان وحيوان منوعة تمثل موسيقيين وراقصات ومناظر صيد وغيرها، منقولة بأمانة عن الطبيعة وفى ذلك مايدل كما يقول على تسامح الشيعة وهى بارزة من القاعدة فى اتقان. وقد وردت محفورات أخرى من هذا القبيل للكنيسة القبطية

«السيدة بربارا» وهى موجودة الآن فى المتحف القبطى بمصر القديمة. وأهم من هذا سقف كنيسة «الكابيلا بالاتينا» فى باليرمو، الذى يبدأ فى الرواق الأوسط بقبوة مقرنصة عريضة عديدة الصفوف. ثم ينتقل إلى سقف من مناطق ذات نجوم مثمنة غائرة. والمسطحات الناشئة فى مثل هذه الترخية فى النحت، هذه المسطحات الصغيرة التى لاتحصى، مصورة جميعها تارة بالنقوش الكتابية والأرابيسك، وتارة بموضوعات حيوان فوق عرانيس، وكذلك أيضا بتصاوير آدمية مختلفة متعددة فى ألوان زاهية.

ويعالج بعض هذه الرسوم موضوعات مماثلة لتلك المحفورات فى القصر الفاطمى، على حين يحتوى قسم آخر موضوعات أسطورية ولاشك أن السقف بأكمله صناعة إسلامية عربية خالصة أوصى بعملها الملك روجر الثانى لكنيسة قصره.

هذه شهادة عالم مسيحى أوربى. شهادة للفن الإسلامى وشهادة لمصر الإسلامية.

ويؤيد «ارنست كونل» المؤلفين العرب فى أنه لابد أن تكون قد **وجدت فى القاهرة مدرسة خاصة بالمصورين**، أقدمت فى نطاق الهندسة المعمارية دائما، على موضوعات تتناول الأشكال الكبيرة أيضا. والظاهر أنها استخدمت وسائل خيالية تثير الاهتمام.

ويقول ارنست كونل (**من الأهمية بمكان تلك الخطوات التى خطتها مصر فى ذلك الوقت صناعة البرونز.** فالزخرفة المحفورة فى المسطح على السلطانيات والبراميل والشمعدانات والمجامر والدفوف، وغيرها من نماذج الأدوات التزمت نطاق الطراز الفاطمى المألوف محلاة بنقوش أدعية، وجامات بها حيوان وقد وجدت إلى جانب ذلك أشياء مصبوبة فى قوالب ومنحوتة على صورة الحيوان كالأباريق والمباخر... وأروع قطعة من هذا النوع، يبلغ ارتفاعها مترا، وتمثل العنقاء المشهورة المحفوظة فى كامبو سانتو بمدينة بيزا... وقد جاءت من مصر مع إحدى الحملات الصليبية.

وعن **الخزف ذى البريق المعدنى** يقول إنه بين ما يسمى «شقافة الفسطاط مما استخرجته الحفريات فى مصر القديمة بالألوف، نجد فى النوع الأسبق كثيرا جدا رسوما تمثل الإنسان. وقد نجح فيها البريق المعدنى فى انسجامات مختلفة، وأجرى أيضا فوق تزجيجات ملونة، ويمكن أن يستنتج من كمية الطينة المستعملة فى الخزف أنه كان بالقاهرة عدة مناطق للفخاريين.

وفى **صناعة النسيج** يقول كانت مصر منذ القدم الموطن الكلاسيكى لصناعة نسج الكتان.. وإلى أواسط العصر الوسيط كانت منتجات هذه الصناعة أهم صادراتها إلى الخارج فالشيلان الرقيقة ومنسوجات الباتستا المخرمة الواردة من وادى النيل، كانت نادرة المثال، تكسبها قيمة خاصة تلك الأشرطة الحريرية التى كانت تتخللها تحلية لها.

وعن دار «**الطراز**» المصرية، يقول إنها بلغت فى العصر الفاطمى مقدرة على الأداء لم يسمع بها لنظامها المثالى. وكانت تصنع للخليفة أقمشة ثمينة جدا مزركشة بالذهب. بيد أن الترف الذى كان مسموحا به للفنانين العاديين، يبدو أنه بولغ فيه كما تدلنا الآثار التى عثر عليها فى مقابر مصر العليا. فقد كانت القمصان والأردية الخارجية، والأحزمة والعمائم محلاة بأشرطة من الحرير السميك المشغول بالإبرة بمنتهى الدقة.

ويقول إن مصر التى حاربت التتار والمغول دفاعا عن الإسلام، لم تشغلها الحروب عن تزيين العاصمة بالعمائر التى (بهرت العالم طرا. وقد زاول العباسيون الذين طردوا من بغداد، خلافتهم الصورية – وقد باتت مجرد شىء رسمى – تحت حماية بلاط القاهرة).

وهو بلاشك يقصد عمائر الأحياء وعمائر الأموات فعن أضرحة صحراء المماليك أو القاهرة الشرقية يقول إنها (حافلة بمجموعة من أمثال هذه المبانى التذكارية، **تعد بحق أروع مدينة أموات فى العالم**).

وعن **بصمة القاهرة فى العمارة** يقول (فى سوريا ارتبطت العمائر الدينية المملوكية بنماذج القاهرة ارتباطا يكاد يكون وثيقا).

وعن مآذن القاهرة يشهد أن من العوامل المهمة فى نشدان روعة التأثير إدماج المآذن فى الوجهات بحيث لايكون لها وهى قائمة على إحدى الزوايا أو كلتا الزاويتين قاعدة خاصة بها بل تشيد فوق كورنيش البناد. وقد كانت المآذن فى تشييدها المقرر لطابع مدينة القاهرة من ذلك الحين مشكلة فى مبدأ الأمر على هيئة مربع ثم على هيئة مثمن، وبعد ذلك على شكل مستدير، لكنها لم تتلق إلا فى هذه الفترة مابث فيها من روح مميز ألا وهو الحنايا والدهاليز المقرنصة، وقد نشأ عن تنفيذ هذه الموضوعات، وكان غالبا، تنفيذا بديعا، وكذلك عن التبديل بالحليات الهندسية، متنوعات متعددة لزمها إلى نهاية الفترة فهم جلى للنسب الجميلة والتنظيم العضوى.

ويدلف الوصف إلى داخل المسجد المصرى فيلاحظ أن الدلايات فيما يتعلق بالزخرفة الداخلية شائعة الاستعمال بخاصة فى رقاب القباب، وذات أهمية معمارية... كما كانت تغشية الجدران ببلاطات من المرمر، وحائط المحراب خاصة، بفسيفساء الحجر أمرا مألوفا. وكان المحراب فى عهد الفاطميين يصنع من الجص أو الخشب، لكنه فى عهد المماليك لم يعد يصنع من ذلك إذ باتت له وظيفة عضوية، وأصبح له **بعقده** المستدير أو المدبب وإطاره المستطيل **جهاز غنى** من فسيفساء الرخام لايبدى نماذج هندسية فحسب، بل كذلك نماذج مقوسة دقيقة الصنع.

ومما يقرر صورة القاهرة وشوارعها فى النفس إلى يومنا هذا المشربيات وهى تكعيبات خشبية ذات زوايا، مركبة فى الطبقات العليا الخارجية. وتستحق أمثلة قديمة منها، أحيانا بوصفها من أعمال الخراطة الجديرة بالملاحظة... نفس الالتفات الذى تستحقه أعمال (الأويمه) **المحفورة** فى الركائز التى ترتكز عليها.

ويتحدث أرنست كونل عن براعة القاهرة فى التكفيت بالذهب والفضة وبلوغها ذروة فى كرسى السلطان قلاوون وكرسى السلطان الناصر (١٣٢٧م) الموجودين فى المتحف الإسلامى.. كما تحدث عن تفنن مصر فى الشمعدانات التى جرت العادة المصرية على أن يوضع اثنان فخمان منها على جانبى المحراب.

وتبهر بعد ذلك تلك القناديل الثمينة التى كانت السلاطين والأمراء المماليك يهدونها إلى بيوت الله بالقاهرة وكانت تصنع من الزجاج المذهب المموه بالمينا.

وكانت **النسخ الفاخرة من المصاحف** المكتوبة بأقلام مشاهير الخطاطين فى مقدمة هدايا القاهرة التى أخرجت حينذاك خطاطين عالميين بارعين فى الخط «الثلث» المفضل المشتق من الخط النسخ... وكان المزخرفون المعهود إليهم فى رسم صفحات العنوان ورءوس السور ودلايات الهوامش وتذهيبها يجيدون، مع الالتزام الدقيق للمنهج، تنويع الزخرفة التى كان اللونان الأزرق والذهبى هما السائدان فيها... وكان المجلدون فوق ذلك يأتون بالمعجب المطرب من طريقة الضغط التى تميز بها العهد المملوكى والتى كانت تقوى بدلايات مصحوبة بأشكال أرابسك متقطعة فوق أرضية من الحرير تضىء خلالها.

وعن **سجاد مصر** يقول «ارنست كونل»:

(يروى رحالة سابقون بما لايدع مجالا للشك أنه فى العهد المملوكى التالى كانت تصنع سجاجيد معقودة لاستعمال البيت فى القاهرة. ويصح أن يعد أكيدا أن ما يسمى

بالسجاجيد الدمشقية، وهى التى حملت هذا الاسم فى أسواق البندقية خطأ فى أكبر الظن، هى نفسها من إنتاج مصر. وقد بقى أكثرها محفوظا، ويرجع بعضها إلى القرن الخامس عشر وبعضها إلى أوائل القرن الذى يليه، ولها دائما صبغة واحدة لاتتغير مؤلفة من الألوان الثلاثة: الأحمر والأزرق الفيروزى والأخضر الزمردى.

أما فى الرسم فتنفرد عن غيرها كل الانفراد: وفرة محيرة فى الموضوعات الهندسية المتبدلة تبدل المبداع، الحافلة بالنبات، تغطى المساحة ولاتتباين معها الأشرطة المتشابهة الألوان إلا قليلا. ومادة السجاد من الصوف اللامع إلا أن تكون من الحرير، وهذا بصفة استثنائية، ومسطحها إما مربع ليتمشى مع أرضية القاعة وإما مستطيل. وأجمل مثال لهذا النوع جاء إلى المتحف النمسوى للفنون والصناعات فى فينا من مقتنيات بيت هابسبورغ الامبراطورى).

ويقرر ارنست كونل أن طراز مصر فى تكفيت السلاح قد دخل الكثير منه فى مجموعات الأسلحة فى استانبول. ويقول (أجمل ما أخرجت صناعة الأسلحة الإسلامية – بحق – بلط القتال المملوكية على الإطلاق، فهى تنم عن الذوق بصورة بينة سواء فى ذلك مقبض البلطة ونصلها).

ويتحدث المؤلف فى انبهار عن الكتاب المصرى الذى كان يطرز بالحرير فى غرزة نسج فائقة العناية حتى يخيل إلى رائيها من فرط دقتها أنها مصنوعة بالآلة.. وذلك بعد أن كانت غرزة المغراز التى ترسم المحيط ماتزال تستعمل فى العهد الفاطمى.

يقول (لدينا كثير من نماذج الأقمشة ترجع إلى ذلك العهد قد حملت معها إلى أوربا أسلوب الغرزة المسماة هولبين، وهى ترسم المحيط بصورة أدق، وإلى هذا الأسلوب يرجع الفضل فى طائفة من التطريزات الفائقة الروعة فى عصر النهضة.

وأخيرا كان طبع الأقمشة بلون واحد محبوسا على الكتاب فى عصر المماليك.

بل إننا لنملك عددا من عصى الطبع مصنوعة من الخشب مما كان يستعمل لهذا الغرض ويستخدم بمهارة بلغ منها أن أنشأت رسما منسجما جدا ظل يتتابع طبعه).

هذه لمحات فحسب من دور مصر فى الفن الإسلامى سجلها أستاذ دارس للفنون... أجنبى لادخل للعاطفة فيه.

مازلت أقول إن أعظم إضافة إلى الحضارة الإسلامية، فى الفن، متحف الفن الإسلامى بالقاهرة.